# ملامح التجديد في شعر دعبل بن علي الخزاعي

المشرف الأستاذ الدكتور : صالح مفقوده
طالبة دكتوراه :صبرينة رقاد
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة بسكرة (الجزائر)

**ملخـــص:**

يسعى المقال إلى تقديم معرفة بدعبل الخزاعي بوصفه أحد الشعراء العباسيين الذين ركبوا صهوة التجديد في الشعر العربي ووضعوا لبنات جديدة في صرح الشعرية العربية في عصره، بما حملته متونه الشعرية من ملامح تجديدية جاعلة من إبداعه الشعري نقطة التقاء وتعانق تجمع بين الأصالة والجده. وذلك مـــن خـلال استقصـــاء اللمســات التي أضفاها الخزاعي على نتاجه الشعري من حيث الموضوعات والبناء الفني.

**الكلمات المفتاحية**: التجديد، الجده ،الأصالة، الايديولوجيا

**Résumé:**

Dans cet article, les différentes formes de renouvellement poétique de l'époque Abassi de l'authenticité, l'esthétique et la modernité à travers sont les thèmes abordés avec la structure artistique.

**Mots de clé :** Idéologue, authenticité, modernité.

**تمـهيـد:**

من سنن الحياة ونواميسها، قديما وحديثا، التطور والحركة، والابتعاد عن الجمود والركود، والأدب العربي بجميع فنونه وألوانه، شأنه شأن الآداب الأخرى، صورة من صور التطور والحركة، فهو يساير الحياة بخيرها وشرها، بقوتها وضعفها، منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا. وبما أن العصر العباسي كان نقطة تغيير مهمة للشعر العربي، فقد كان ظهور النزعة التجديدية في شعر هذا العصر نتيجة طبيعية للتغير الذي أصاب الحياة العربية التي انتقلت من البداوة إلى التحضر، مما دفع بشعراء هذا العصر إلى المواءمة بين أشعارهم والحياة الجديدة التي يعيشونها.

ولم يكن **دعبل بن علي الخزاعي**[1] بمعزل عن التجديد الذي شهده عصره، غير أن ذلك لا يعني أنه قد أحدث القطيعة مع الموروث القديم، وانما كان نتاجه الشعري نقطة تعانق بين القديم والجديد، إذ حملت متونه الشعرية من ملامح التقليد كما حملت من ملامح التجديد ما يجعل من الشاعر أحد الذين ركبوا صهوة التجديد وأضافوا لبنات جديدة إلى صرح الشعرية العربية، **فما هو الجديد الذي جاء به دعبل الخزاعي في موضوعاته، أغراضه، وصوره الفنية؟ وكيف انعكس توجهه العقدي على أبياته الشعرية؟!**

قبل الولوج إلى الحديث عن ملامح التجديد في النصوص الشعرية للخزاعي سيجنح البحث إلى الوقوف على المفهوم اللغوي والاصطلاحي للتجديد في الشعر. **فما المقصود بالتجديد؟**

**1ـ مفهوم التجديد:**

**جاء التجديد في اللغة العربية** بمعنى إرجاع الشيء إلى الحالة الأولى التي كان عليها قبل أن يصبح قديما. وكلمة تجديد مأخوذة من الفعل تجدد، يقال تجدد الشيء أي صار جديدا وجدد الشيء أي صيره جديدا."[2]

**أما في الاصطلاح الأدبي:** فإن قضية التجديد من القضايا التي شغلت النقاد والدارسين في عصور مختلفة ومما زاد من أهمية هذه القضية ارتباطها الوثيق بالواقع الزمني، الذي يجعل من القدم والجّدة مفهومين متقابلين ويدخلها في حالة من الصراع الدائم تماشيا مع سنة التطور والاستحالة التي تجعل من كل جديد قديما في زمن لاحق، ليس في مجال الشعر فحسب وإنما في مجال الفن والعلم والفلسفة بل في الحياة كلها.[3]

ولعل ما يهمنا من ذلك كله، هو الصراع القائم في مجال الأدب، والذي يحاول تقديم رؤية فنية وموضوعية متجددة، بتجاوز الأساليب القديمة وتحطيم الأطر والقوالب الجاهزة المعدة مسبقا،[4]

من خلال جملة من الألفاظ والأساليب المبتكرة التي تتماشى مع طبيعة المرحلة التاريخية بجميع أبعادها الثقافية، الاجتماعية وحتى السياسية.

وتبعا لذلك فإن التجديد نزوع نحو الخلق والإبداع، غايته الإتيان بأشكال جديدة، تختلف عن الأشكال القديمة. غير أن هذا الخلق والإبداع لا يمكن أن ينطلق من فراغ لأن التجديد لا يعني" الابتكار الخالص أو التغير الشامل، ولعلنا نخطئ كل الخطأ إذا فهمنا التجديد على هذا النحو"[5]، الذي يغيب فيه التفاعل بين الماضي والحاضر. فالتجديد إنما هو بناء يستند إلى أعمال تراثية سابقة تشكل له الأرضية التي يتكئ عليها انطلاقا من أن "القديم يسبق الجديد... والتراث هو الوسيلة والتجديد هو الغاية."[6] فالتجديد ليس بالثورة الهدامة التي تنقطع معها أواشج التواصل بين الماضي والحاضر، إنما هو بناء واستمرارية يجمع بين الأصالة والجدة من خلال ما يضفيه الشاعر من الإبداع والابتكار على أصول قديمة، بهدف التغير والمواءمة مع المعطيات الحياتية الجديدة سواء كان ذلك على مستوى الشكل أو المضمون.

**2 ـ ملامح التجديد في شعر دعبل:**

عودة للحديث عن التجديد في شعر **دعبل بن علي الخزاعي** فإن أشعاره تحمل من اللمسات التجديدية ما يجعل منه واحد من الشعراء الذين استوعبوا التطورات السياسية والاجتماعية وواكبوا تطورات التجربة الشعرية في عصر بني العباس، وتجسدت الملامح التجديدية عند الخزاعي على النحو الآتي:

**أ - التجديد في المضمون:**

**أ-1__ التجديد في الأغراض:**

إن المتأمل للأغراض الشعرية في ديوان دعبل الخزاعي يلاحظ أن أغلبها من الأغراض التقليدية، التي لم تخرج في مجملها عن الهجاء، الرثاء، المديح... وغيرها، غير أن ذلك لم يمنع من ظهور بعض اللمسات التجديدية التي أضفاها الشاعر على هذه الأغراض حتى تستوعب المتغيرات الاجتماعية والسياسية والدينية، ولعل أهمها:

أ-1ـ الهجاء:

استطاع الخزاعي الخروج بالهجاء عن نمطه التقليدي المعهود، حين أقحمته في معترك الحياة السياسية جاعلا منه لونا من ألوان الصراع السياسي والمذهبي حينا، ومرآة للحياة الاجتماعية حينا آخر.

ومن أهاجي الخزاعي في انتقاد السلطة العباسية وتسليط الضوء على الآفات الاجتماعية السائدة في فترة حكمها. قوله في هجاء المعتصم:[7]

مُلُوكُ بَنِي العَبَاسِ فِي الكُتُبِ سَبْعَةٌ خِيَارٌ إذا عُدّوا وثَامِنُهُمْ كَلْبُ
وإنِّي لَأُعْلِي الكَلْبَ عَنكَ رِفْعَةً لِأَنَّكَ ذُو ذَنْبٍ ولَيْسَ لَهُ ذَنْبُ
كَأَنَّكَ إذَا مَلَكْتنا لِشَقَائِنَا عَجُوزٌ عَلَيْهَا التَّاجُ والإتْبُ

تعكس الأبيات وجهة نظر سياسية رافضة، اتخذها الشاعر إيزاء تولي المعتصم للخلافة، كما أنها تنم عن رفض وتمرد يصل إلى حد التجريح والتقبيح، إذ عمد الخزاعي إلى الاستخفاف بالمعتصم على اعتبار أنه ثامن خلفاء بني العباس، مساويا بينه وبين الكلب في المنزلة، قبل أن يعود ليستدرك بأن كلب أهل البيت أرفع منزلة، لأنه برئ من الذنوب على عكس المعتصم الذي جمع ذنوب الدنيا حسب رأيه، ثم يواصل في الحط من شأن الخليفة مشبها إياه بالعجوز.

وإذا كان الخزاعي قد عمد في الأبيات السابقة إلى النقد السياسي المباشر، فإنه كثيرا ما يلجأ إلى نوع آخر من النقد المعادي للسلطة، وذلك من خلال تسليط الضوء على الآفات الاجتماعية التي خلفتها الأوضاع الاقتصادية المتردية كالفقر والبخل.. ومن ذلك قوله:[8]

قَومٌ إذَا أَكَلُوا أَخْلَفُوا كَلَامَهُمْ واسْتَوْثَقُوا من رِتَاجِ البَابِ والـدّارِ
لَا يَقْبَسُ الجارُ فَضْلَ نَارِهِـمُ ولَا تَكُفُّ يَدٌ عن جَرِيمَةِ الـــدّارِ

والبيتان من شعر الهجاء المفعم بالسخرية التي يبغي من خلالها الشاعر تسليط الضوء على ظاهرة اجتماعية تفشت في المجتمع العباسي، وهي البخل الذي هو خلق ذميم خلّفته الأوضاع الاقتصادية المتردية للطبقة الدنيا من العباسيين، والتي تعاني من شظف العيش في حين ينعم ملوك بني العباس وحاشيتهم بأموال الدولة ويبددونها على شهواتهم.

كما مارس دعبل لونا آخر من الهجاء لم تدع إليه الخصومة السياسية ولا الانتماء المذهبي، وإنما كان بدافع السخرية وإظهار البراعة في التقبيح وتوليد المعاني، تأثرا بلون خاص من الهجاء انتشر في عصر بني العباس " لم تدع إليه العصبية ولم تثره خصومة سياسية، وإنما كان مرجعه إلى السخرية والتهكم وإزجاء الفراغ وإظهار البراعة في التقبيح وتوليد المعاني فيه".[9] وبالغ فيه الشعراء فـ"راحوا يتتبعون العورات ويستقصون العثرات ويرمون بما شاع من لواط وأبنة ورشوة.... كما راحوا يذمون اللحي ويهزؤون بالخلق المشوهة والأنوف الكبيرة ويستهجنون أصوات المغنين ويسخرون من عادات الملتزمين"،[10] ويتسابقون في إظهار البراعة في الوصف والإبداع في السخرية ورسم الصور الكاريكاتيرية المغرية بالضحك، والتي تمكنوا من خلالها من تنمية الهجاء من هذا الجانب الساخر.

وقد بالغ دعبل من خلال أهاجيه الساخرة في التقبيح والتحقير، ومن ذلك قوله في هجاء بني وهب:[11]

إِذَا رَأَيـــــتَ بَـــــنِي وهْـــــبٍ لَـمْ تَـدْرِ أَيُّـهُـمُ الأُنْـثَى مِـنَ الذَّكَـــــــرِ
قَمِـــيصُ أُنْثَاهُـــــــمْ يُنْقَـــدُ مِـــنْ وقَمِيصُ ذَكْـرَانِهِمْ تُنْقَدُ مْـنْ دُبُـــــرِ
مُحَنَّكُونَ على الفَحْشَاءِ في صِـــغَرٍ مُحَنَّكُـونَ عـلى الفَحْشَـاءِ في كِبِـــرَ
مُحَنَّكُونَ ولم تَنْقَطِـــعْ سَرَائِـــرُهُمْ بَـينَ الحَوَاضِـنِ والدَايَاتِ بِالكَمَـــــرِ

يرسم الخزاعي في هذه المقطوعة صورة مظلمة لبني وهب، فلا فرق عنده بين إناثهم وذكورهم الذين أقبلوا على ممارسة الزنا والفواحش في صغرهم وترسوا على ذلك في كبرهم.

هذا وقد تميزت أهاجي الخزاعي بميزة خاصة جعلتها تختلف عن غيرها من الأهاجي، وتضيف أسلوبا جديدا إلى صنعته الفنية وهو استخدام أسلوب الحكاية والإسناد، ومن ذلك قوله في هجاء أحمد بن أبي داود:[12]

سَـــأَلْتُ أَبِي وكَانَ أَبِي خَبِيـــرًا بِسَـاكِنَةِ الجَزِيـرَةِ والسَـــــــــوَادِ
فَقُلتُ لَهُ: أَهَيْتُمْ من غَنِـــي؟ فَقَـالَ كَأَحْمَـدَ بـن أَبِـــــــي دَاوُدِ
فَإِنْ يَكُ هَيْتَمٌ من جِذْمِ قَيْسٍ فَأَحْمَـدُ غَـيرُ شَـكٍّ مِـن إِيَـــــادِ
مَتَى كَانَتْ إِيَادٌ تَرِيسُ قَوْمًـا لَقَـــدْ غَضِّـــبَ الإِلهُ عـــلى العِبَـــادِ

لجأ الشاعر في هذه المقطوعة إلى أسلوب قصصي، اعتمد فيه على عنصر الحكاية والإسناد إلى راو عليم أحكمه في الحكاية بتساؤل بريء في الظاهر، كأنما طرحه بحثا عن الإجابة بالفعل، ثم تنحى جانبا وأفسح المجال للراوي ليسلط الضوء على النقيصة التي أرادها على نحو مثير للسخرية.

وأيضا يضيف دعبل في هجائه السياسي أسلوبا جديدا إلى صنعته الفنية يدخل في اطار قصصي يتولى خلاله الشعر نقل ما جرى من أحداث بأسلوب تسجيلي تصويري ومن ذلك قوله في هجاء ابن عمران:[13]

أَتَيْتِ (ابْنُ عُمْرَانٍ) فِي حاجةٍ هوينة الْخُطَبَ، فَالْتـــائُهَا
تَظَلُّ جِيَادُي عَلَى بَـــــابِهِ تروث وَتَأْكُلَ أَزْوائَـــــهَا
غوارث تَشْكُو إِلَي الْخَـــلا أَطَالَ (ابْنُ عُمْرَانٍ) إغرائها

**أ-2- التجديد في المعاني:**

على الرغم من افراط الخزاعي في الهجاء افراطا يكاد يحجب فنه الجديد في الشعر العربي،

فإن الصناعة الصارخة والصور البهيجة التي عمد إلى اختراعها تعلن عن نفسها يصوت عال مسموع.[14]

وما تواتر من أخبار حول البواكير الشعرية الأولى لدعبل دليل على مرحلة النضج الفني التي وصل إليها، كيف لا وقد عاش الشاعر في بيئة محاطة بالعلماء والشعراء وتتلمذ على يد مسلم بن الوليد الذي لعب دورا كبيرا في استقامة عوده الشعري، إذ كان يستمع لقصائده ويقيمها[15]، ولم يثن عليه إلا حين سمعه يقول:[16]

**أَيْـنَ الشّـبابُ ؟! وأَيَـةً سَلَكَـــا ؟! لاَ أَيْـنَ يُطْلَـبُ ؟! ظَـلّ بَـلْ هَلَكَـا**
**لَا تَعْجَـبِي يَا سَـلْمُ مـن رَجُـــلٍ ضَحِـكَ المَشِـيبُ بِرَأْسِـهِ فَبَكَـى**

وقد عبر دعبل عن ذلك بقوله: "ما زلت أقول الشعر وأعرضه على مسلم بن الوليد، فيقول لي: اكتم هذا... حتى قلت قصيدة أين الشباب، فقال: اذهب الآن فاعرض شعرك كيف شئت ولمن شئت"[17] والأبيات تحمل معنى جديدا لم يسبق إليه أحد قبل الخزاعي، وهي عبارة عن رؤية تأملية إزاء ما يعتري الإنسان من قوة ووهن، كما أنها وقفة على أطلال الشباب، كل ذلك في "مقطوعة تنم عن رقة متناهية واحساس شاعري رهيف، وتلاعب طريف بالمعاني، ومداعبة بديعة لصيغة القول، جمعت ألوان من الزينات اللفظية من جناس وطباق إلى نكت بيانية تمثلت في الاستعارات الحضرية التي تضمنتها الأبيات، والتي لم ينجح في ابتكارها إلا عدد قليل من أمثال مسلم بن الوليد وأبي نواس."[18]

**ب - التجديد في الشكل الفني:**

كشف شعراء العصر العباسي عن تجربة شعرية جديدة تتناغم مع سياق حياتهم وتتلاءم مع الذوق الفني للمتلقي الجديد، إذ "لم يعد همّ الشاعر الوصول إلى التعبير، بقدر ما صار من همومه التفكير في كيفية الوصول إلى التعبير، فبدأنا نرى معمارا شعريا جديدا وتركيبا بنائيا جديدا يعنى بشكل الشعر وصناعته"[19]، وقد تجلت ملامح هذا التغير الذي طرأ على الشكل الفني للقصيدة العباسية لدى الخزاعي في:

**ب-1 ـ المقدمة الطللية:**

كان الخزاعي واحدا من الشعراء العباسيين الذين اتخذوا موقفا خاصا من الطلل، إذ راح يرسم لنفسه طريقا خاصا تمثل في الوقوف على الطلل الشيعي، بكل ما يحمله من دلالات مكانية وزمانية وقداسة دينية، فلم يكن حضور الطلل عنده حضورا تقليديا، وإنما كان حضورا خاصا ارتبط بالمعتقدات الشيعية واتسع مداه ليخرج عن نطاق المقدمة وينبث على مدار القصيدة من بدايتها إلى نهايتها. وقصيدته التائية خير شاهد على هذا الموقف المتميز إذ اتسع حضور الطلل فيها ليشمل أماكن هي غير تلك التي عهدناها عند شعراء الجاهلية وجاء فيها قوله:[20]

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَتْ من تِـــلاَوَةٍ ومَنْزِلٌ وحَيٌّ مُقْفِرُ العَرَصـــــاتِ
دِيـارُ عَلِيٍ والحُسَيْـــنِ وجَعْفَـــرٍ وحَمَزَةَ والسَجَّادِ ذِي الثَفَنَـــاتِ
قِفَا نَسْأَلُ الدَّارَ التِّي خَفَ أَهْلُهَـا مَـــتَى عَهـــدُهَا بِالصّـــوْمِ والصَّـــلَوَاتِ
هُمْ أَهْلُ مِيرَاثِ النّبِي إِذَا اعْتَـزُوا وهُمْ خَيْرُ سَادَاتٍ وخَيْرُ حُمَـــاةِ

والملاحظ على حضور الطلل في هذه المقطوعة أنه لم يأت ليعيد ما هو تقليدي وتراثي كما عهدناه في بكاء الدمن والأثار الدراسة لدى الجاهليين، وإنما كان وقفة تساؤليه ( قفا نسأل الدار)، استوقف من خلالها الشاعر الصحب لسؤال الدار عن أهلها، وعن العبادات التي كانت تقام فيها، مستحضرا العديد من الشخصيات الدينية التي كان لها ارتباط وثيق بالمعتقدات الشيعية كالحسين، وجعفر..، وقد حاول الشاعر من خلال ذلك الوقوف على أطلال الروح المتشيعة الحزينة وتأجيج مشاعر الحزن والشجن والحصرة على ما أصاب هذه الشخصيات.

وقد رافقت هذه الأطلال الشاعر على مدار القصيدة، ولم تقتصر على المقدمة كما هو معهود في شعر ما قبل الإسلام، إذ شكلت نقطة ارتكاز اتخذ منها الشاعر وسيلة للإشارة إلى ما جرى عليها من أحداث ووقائع.

فضلا عن هذا الحضور المتميز للطلل في النص الشعري للخزاعي، فقد أعرب الشاعر عن رفضه للوقوف على الطلل التقليدي، مشاركا بذلك أبا نواس في الثورة على الأطلال وتفضيل استبدالها بذكر الخمر، ويتجلى ذلك في رده على زياد الساقي[21] بقوله:[22]

يَقُولُ زِيَادٌ قِفْ بِصَحْبِكَ مَـــرَةً على الرَبْعِ مَالِي والوُقُوفُ على الرَّبْعِ
أَدِرْهَا على فَقْدِ الحَبِيبِ فَرُبَمَـا شَرِبْتُ على نَأْيِ الأَحِبَةِ والفَجْـــعِ
فَمَا بَلَغَتْنِي الكَأْسُ إلاّ شَرِبْتُهَا وإلَّا سَقَيْتُ الأَرْضَ كَأْسًا مِنَ الدَّمْـعِ

لا يستجيب الشاعر لدعوة زياد الساقي ويأبى الوقوف على مرابع الحي، بل يستنكر هذا الوقوف ويستبدل ذكر الطلل بذكر الخمرة. ويذهب مصطفى الشكعة أنه من الصعوبة بما كان تحديد أي الشاعرين كان له فضل السبق في هذا الاتجاه خاصة وأن هذه الأبيات تجعلنا نقع في لبس اتجاه دعبل وأبي نواس، وأيهما كان البادئ في هذا الاتجاه، بل ويؤكد أنه ليس من شك أن هذه المقطوعة تزعزع مقولة أن أبا نواس هو أول من ترك الوقوف على الطلل فدعبل ينازعه في ذلك خاصة أن فارق المولد بينهما عامان اثنان لا غير.[23]

في مقام آخر نجد الخزاعي يطالب الشعراء بالتخلي عن الوقوف على الأثار الدارسة والإقبال على بكاء الحسين وأهل بيته قائلا:[24]

يَا وَاقِفًا تَبْكِي على الطُّلُولِ وتُنْشِدُ بِاللهِ تُهْتَ وغَابَ عَنْكَ المُرْشِدُ
كَمْ تَدَعِي حزنًا وأَنتَ مُـــــرَفَّهٌ إذا كُنْتَ مَحْزُونًا فَمَالَكَ تَرْقُدُ
هَلّا بَكَيْتَ على الحُسَيْنَ وأَهْلِـــهِ هَلَا بَكَيْتَ لِمَنْ بَكَاهُ مُحَمّـــدٌ

**ب-2 ــ الصورة الشعرية:**

جاءت الصورة الشعرية عند دعبل الخزاعي متميزة بالجدّة مستوحاة من واقع الحضارة بألوانها السياسية، الاجتماعية والمذهبية ومفعمة بالحركة والحيوية والحياة، ومن ذلك تلك الصورة الكاريكاتورية التي رسمها لجارية تدعى برهان[25] وجاء فيها:[26]

بُرْهَـــانُ لَا تَطْـــرِبُ جُلَّاسَـــا حـــتَّى تُرِيـــكَ الصَّـــدْرَ مَكْشُوفَـــا
شَـــبَهُهَا لَمَـــا تَغَنَّـــتْ لَـــهُمْ بِنَعْجَـــةٍ قَـــدْ مَضَـــغَتْ صُـــوفًا

يجعل الخزاعي من برهان بطلة لصورته الهزلية الساخرة محاولا تسليط الضوء على ظاهرة اجتماعية وثقافية شاعت في العصر العباسي، خلاصتها أن هذه الجارية التي تدعى" برهان" تعتمد في جلب انتباه سامعيها على الإغراء وليس على موهبتها، مشبها إياها بالنعجة التي تمضغ الصوف ليدلل على مزاولتها الغناء وهي ليست صاحبة موهبة.

وهذه الصورة الساخرة تعكس براعة الشاعر في التصوير وقدرته على رسم صور مفعمة بالحركة تجعلنا نطل من خلالها على ظواهر اجتماعية وثقافية في عصره على غرار مجالس الطرب والغناء.

فضلا عن الصورة السابقة فإن الخزاعي تميز بنوع آخر من التصوير استلهمه من توجهاته المذهبية وحبه الخالص لأهل البيت، ومن ذلك قوله:[27]

إِذَا وَتَـــرُوا مـــدّوا إلى وَاتِـــرِيهِمْ أَكُفّـــا مـــن الْأَوْتَارِ مُنْقَبِضَـــاتِ

يحمل البيت كناية عن صفة التسامح والترفع عن سفاسف الأمور عند الأئمة الذين يمدون أكفهم المنقبضات عن الوتر إلى واتريهم حتى يصلوا إلى هذه الأيادي مصافحين لها متسامحين معها، ولا يردون الإساءة بالإساءة، والشاعر هنا يحاول إبراز الفرق بين أخلاق الأئمة من آل البيت وغيرهم من الناس فهم يتحلون بصفات الكرامة والترفع عن الظلم والجور، وهي صفات مثلى تؤهلهم لأن يكونوا الأولى بخلافة المسلمين من غيرهم.

غير بعيد عن الصورة السابقة نجد الخزاعي يرسم صورة أخرى تفيض بالسخرية والتهكم، في معرض هجائه لرجل من بني هاشم قائلا:[28]

مَالِي رَأَيْتُكَ لَسْتَ تُثْمِرُ طَيِبًا عَذْبًا وأَصْلُكَ هَاشِمِيُ المَغْـــــرَسِ

حتَّى كَأَنَكَ نِقْمَةٌ في نِعْمَـــةٍ أو غُصْنُ شَوْكٍ في حَدِيقَةِ نَرْجِسِ

إن المتأمل لهذين البيتين يلاحظ أنهما يقومان على التصوير التمثيلي، وينمان عن براعة في التصوير مكنت الشاعر من رسم لوحة فنية جميلة، انتقل من خلالها الشاعر من الهجاء والغضب من المهجو إلى تشبيهه بغصن الشوك الذي ينمو بين أزهار النرجس. وهذه الصورة الفنية مستوحاة من الطبيعة العباسية إذ فتن الخلفاء ببناء الحدائق وإقامة الرياض الغناء.

في موضع آخر نجده يقول:[29]

وبِعِ السَفَاهَةَ بِالوَقَارِ والنُهَى ثَمَنٌ لَعَمْرِكَ إنْ فَعَلْتَ رَبِيـحٌ

يعمد الشاعر في هذا البيت إلى تحويل السفاهة إلى شيء مادي محسوس يباع ويشترى ويتخلص منه مقابل شراء الوقار والنهى، بحيث يصبح بمقدور السفاهة أن تنوب عن السلعة. وهذه الصورة الاستعارية تعكس ملل الشاعر من دنياه وما فيها من أفق مادي واجتماعي ضيق، فيسعى إلى بيع السفاهة والضلال بالنهى والوقار وهو بذلك يحاول أن يرتقي بنفسه من العالم الأرضي العباسي وما فيه من مجون وخلاعة إلى عالم آخر يفيض بالصفاء والنقاء الروحي والاجتماعي.

وفي نفس السياق نجده يقول:[30]

هُمْ بِيضُ الرَمَادِ[31] يُشَقُ عَنْهُمْ وبَعْضُ البِيضِ يُشْبِهُهُ الرَمَادِ

يهجوا الشاعر في هذا البيت قوم أحمد بن أبي داود ويرميهم بالزنا، مشيرا إلى أنهم كالجراد الذي خرج لتوه من البيض وأن الكثرة التي هم عليها أنما مردها إلى انتشار الفواحش بينهم، والكناية في بيض الرماد هي كناية عن الموصوفين الذين هم أولاد الزنا. ويحاول من خلال هذه الصورة الكنائية النفاذ إلى ظاهرة الانحلال الأخلاقي في المجتمع العباسي والتي لعبت فيها الجواري والقيان الوافدات من ثقافات مختلفة دورا أساسيا.

كما يقول أيضا:[32]

إذَا أَوْرَدُوا خَيْلًا تَسَعَرُ بِالقَنَا مَسَاعِرَ جَمْرِ المَوْتِ والغَمَرَاتِ

يحاول الشاعر من خلال هذه الصورة الكنائية، التعبير عن شجاعة أهل البيت في ساحات الوغى بالنار المستعرة، فهم في عَدْوهم بالخيل يلهبون النار تحتهم التهابا، وفي قوة إقدامهم يثيرون الغبار حولهم. وهذه الصورة تضفي على العلويين نوعين من الصفات إحداها معنوية هي الشجاعة والقوة والسرعة، والأخرى مادية هي إعداد العدة لخوض الحرب.

في الأخير نخلص إلى أن الصورة الشعرية عند دعبل الخزاعي تعكس طبيعة العلاقة القائمة بينه وبين

العالم المحيط به بجميع جوانبه الاجتماعية، السياسية والمذهبية، إذ تتجاوز كونها مجرد أداة للزينة إلى كونها محاولة لإعادة بناء عالم دعبلي خاص يعبر عن التفاعل بين الشاعر والحياة المحيطة به.

**ب-3 ـ الصنعة البديعية:**

اتجه عدد كبير من الشعراء إلى تحميل أشعارهم بصنوف مختلفة من البديع، على اعتبار أنه دليل على السبق والتجديد، ومؤشر هام على الاستجابة لزخرف الحضارة الجديدة. والصنعة البديعية ليست بالظاهرة الغريبة على شاعر كدعبل الخزاعي وهو الذي تتلمذ على يد مسلم بن الوليد صانع البديع، إذ جاء شعره متضمنا للكثير من المحسنات البديعية التي أضفت عليه جمالا ورونقا، على غرار ما نجده في قصيدته التي مدح بها "الفضل بن مروان"[33] والتي هي غاية في التجويد والتجديد، وقد أثبت الشاعر من خلالها تفوقا لغويا وفنيا في استخدام البديع، وجاء فيها:[34]

**نَصَحْتُ فَأَخْلَصْتُ النَّصِيحَة للفَضْـــلِ**

**وقُلْتُ فَيَسَرْتُ المَقَالَةَ في الفَضـــــلِ**

**أَلَا أنّ في الفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ لَعِبْـــــرَة**

**إنْ اعْتَبرَ الفَضْلَ بْنُ مَرْوانَ بِالفَضْـــلِ**

**ولِلفَضْلِ في الفَضْلِ بن يَحْيَّ مَواعِظُ**

**إنْ إتَعَظَ بْنُ مَـــرْوانَ بِالفَضْـــــــــلِ**

**وفِي بْنِ الرَّبيعِ الفَضْلُ لِلفَضْلِ زَاجِـــر**

**إنْ ازْدَجَرَ الفَضْلُ بْنُ مَروانَ بِالفَضْـــلِ**

**إذَا ذَكَّروا يَومًا وقَد صِرْتَ رَابِعًـــــــا**

**ذَكَرتَ بِقَدْرِ السَّعْيِ مِنْكَ إلى الفَضْـــــلِ**

**ولَمْ أَرَ أَبْيَاتًا من الشِعْرِ قَبْلَهَـــــــا**

**جَمِيعُ قَوَافِيهَا على الفَضْل والفَضْـــــلِ**

**ولَيْسَ لَهَا عَيْبٌ إذَا هي أُنْشِـــــــدْت**

**سِوى أنّ نُصْحي الفَضْلَ كَانَ مِن الفَضْلِ**

إن أول ما يلفت انتباهنا في هذه الأبيات هو التلاعب الجميل باسم الفضل، فقد جعل الشاعر من هذا الاسم قافية للقصيدة كلها"واجتهد في أن يكون كل فضل بمعنى، فتارة هو الفضل بن مروان وأخرى هو الفضل بن سهل، وثالثة هو الفضل بن الربيع... وهكذا."[35] وقد شكل هذا التكرار لكلمة الفضل نغما موسيقيا عذبا يدل على براعة الشاعر في التنسيق بين المفردات وإعطائها دلالات مختلفة، كما يعد خروجا عن المألوف لم يسبق إليه أحد من الشعراء، وهو ما يقر به الشاعر نفسه في البيت الأخير حينما يشير إلى أنه لم ير قط قصيدة قد نظمت قافيتها على كلمة واحدة.

**ب-4 ـ البناء المتماسك:**

تميز النص الشعري لدعبل باستخدام البناء المتماسك أو ما يسمى عند القدماء بالتضمين، وهو أن يفتقر البيت السابق إلى البيت اللاحق، أو"أن تتعلق القافية أو لفظة قبلها بما بعدها"[36]، مما يجعل معنى البيت لا يستقيم إلا بقراءة البيت الموالي، وفي ذلك ما يعد خروجا عن وحدة البيت في القصيدة العربية التقليدية، ومن النماذج التي تبرز ذلك قول الشاعر:[37]

سَأَلْتُ عَنْكُمْ يَا بَنِي مَالِكٍ  فِي نَازِحِ الأَرْضَيْنِ والدّانِية
فَلَمْ تَكُنْ تُعْرَفُ لَكُمْ نِسْبَةٌ  حتَّى إذَا قُلْتُ بَنِي الزّانِيـة
قَالُوا: فَدَعْ دَارًا على يُمْنَةٍ  وتِلْكَهَـــــا دَارُهُمْ ثَانِيـــــةً

والأبيات عبارة عن سرد قصصي يقوم على التسلسل في الأحداث، افتتحه الشاعر بتساؤل أرجأ الإجابة عليه إلى غاية البيت الثاني، وذلك ما جعل الأبيات ترتبط ببعضها البعض ويأتي كل منها مكملا للآخر.

**ب-5 ـ المعجم الشعري:**

تأثر المعجم الشعري للخزاعي بثقافة الشاعر وروحه المتشيعة، فجاء انتقاء الألفاظ عنده مرتبطا بصورة مباشرة بالفكر الشيعي، فكانت المفردات ذات وظائف ورموز دلالية متعددة الأبعاد تخدم مرتكزات فكرية بعينها سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وهذا ما جعل الألفاظ ذات الدلالات الدينية تسيطر إلى حد بعيد على المعجم الشعري للخزاعي، وتصبغة بصبغة مميزة امتزجت فيها العقيدة بالفن مجسدة بصمة خاصة تميزت بها المتون الشعرية للخزاعي، ومن بين الألفاظ الدينية التي وظفها دعبل في قصائده:" علي، الحسين جعفر، السجاد، ذي الثفنات، عرفات، الخيف، منا، العدل، الرضا علام الغيوم، إمام الهدى، القبس، كربلاء، فخ، باخمرا، كوفان، طيبة،البهاهيل، الأشقين، ذوي القربى، غدير خم، جبل رضوى، الوصيّ، آل الرسول....." وكل تلك المصطلحات والأسماء لها علاقة بالفكر الشيعي.

ورغم اللمسات التجديدية التي أحدثها الخزاعي في معمار قصيدته معنى ومبنا إلى أنه لم يقطع

صلته بالتقاليد الشعرية المتوارثة سيما فيما يتعلق بالموسيقى والأوزان الشعرية إذ قل استخدام الخزاعي للبحور المتسارعة والخفيفة كالرجز، والهزج، والمجتث وهذا لابتعاده عن جو الغناء والطرب الذي ساد في عصره ومال إلى استخدام البحور الطويلة كبحر كالطويل، والكامل لطول نفسها وقدرتها على احتواء تجربته الشعرية من خلال توفير فضاءات رحبة يعبر فيها الشاعر عن أشجانه وأحزانه على ما لحق بالعلويين من مظالم.

**الخـاتمـة :**

إن الدارس لقصائد دعبل الخزاعي يلاحظ استخدامه لعدد من الأساليب التي ساعدت وفي وقت مبكر على إعطاء قصائده نكهة خاصة تميزه عن غيره، فالثورة الفكرية والفنية تحتل المركز الرئيس في مجمل قصائده.

ورغم أن دعبل لم يقطع الصلة بالتراث الشعري العربي وأبقى وشائج التواصل والارتباط قوية معه إلا أنه لم يبق أسيرا للقوالب التقليدية الجامدة بل طوع شعره وأدخل عليه تجديدات تخدم تجربته الشعرية وتوجهه المذهبي، فهو شاعر عايش التجربة الشعرية، وعبر عنها بما يلائمها.

## الهوامش والمراجع والمصادر

(1)- دعبل بن عليّ الخزاعي( 148هـ - 246هـ) شاعر عباسي متميز، اختلف المؤرخون في اسمه و نسبه ومكان ولادته، واتفقوا في لقب " دعبل"، نشأ في بيت اشتهر اكثر رجاله بقول الشعر، عاصر العديد من خلفاء بني العباس وأقذع في هجائهم، قتل بمنطقة السوس بعكاز مسمومة مات إثرها. أخباره مبثوثة في : الأغاني، معجم الأدباء، شذرات الذهب، الوافي بالوفايات، وغيرها.

(2)-ابن منظور جمال الدين أبو الفضل، لسان العرب، تعليق : خالد رشيد القاضي وآخرون، ط1، دار صبح وإيديسوفت، بيروت ـ لبنان، الدار البيضاء ــ المغرب، 2006م، ج2، ص 136.

(3)-ينظر: طه حسين، حديث الأربعاء، د ط، المطبعة التجارية الكبرى، مصر، د ت، ص2.

(4)- ينظر: وئام كاظن سميسن، عبد الطيف السحرتي ناقدا، مجلة اللغة العربية وآدابها، العدد7، ص236.

(5)- نافع محمود، اتجاهات الشعر الأندلسي، إلى نهاية القرن الثالث هجري، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ـ العراق، 1990، ص128.

(6) - حسن حفني، التراث والتجديد، ط4، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ـ لبنان، د ت، ص13.

(7)- دعبل بن علي الخزاعي، شعر دعبل بن علي الخزاعي، صنعه: عبد الكريم الأشتر، ط2، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ـ سوريا، 1983م.ص50،49.

(8) - المصدر نفسه، ص452.

(9 ) – محمد عبد المنعم خفاجي، الآداب العربية في العصر العباسي الأول، ص217.

(10) - المرجع نفسه،ص217.

(11)- دعبل الخزاعي، شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص153،152.

(12) – المصدر نفسه، ص380.

(13)- المصدر نفسه، ص102،101

(14) مصطفى الشكعة، الشعر والشعراء في العصر العباسي، ط7، دار الملايين، دب، 1991،ص 335.

(15) – المرجع نفسه، ص333.

(16) - دعبل الخزاعي، شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص203،204.

(17)- الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني، د ط، موفم للنشر والتوزيع، الرغاية ـ الجزائر، 1992م، ج20، ص113.

(18) - مصطفي الشكعة، الشعر والشعراء في العصر العباسي، ص336.
(19) - محمد زكي العشماوي، موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، د ط، دار النهضة العربية، بيروت ـ لبنان، 1981، ص10.
(20) - دعبل الخزاعي، شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص78.
(21)- زياد الساقي:
(22)- المصدر نفسه، ص186،185.
(23) مصطفى الشكعة، الشعر والشعراء في العصر العباسي، ص 337.
(24) - دعبل الخزاعي، شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص324.
(25) - برهان: جارية من جواري دعبل.
(26) - دعبل الخزاعي، شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص191.
(27) - دعبل الخزاعي، شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص86.
(28) – المصدر نفسه، ص169.
(29)- المصدر نفسه، ص108.
(30)- المصدر نفسه، ص114.
(31) - بيض الرماد: كناية عن أولاد الزنا
(32) – المصدر نفسه، ص83.
(33) - الفضل بن مروان: هو أبو العباس الفضل بن مروان، (170 ـ 250ه) تولى الخراج في عهد الرشيد، وكان كاتب المعتصم.
(34)- دعبل الخزاعي، شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص 218،219.
(35) - مصطفى الشكعة، الشعر والشعراء في العصر العباسي، ص339.
(36)- ابن رشيق القيرواني، العمدة، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1981م،،ج1، ص171.
(37) - دعبل الخزاعي، شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص278،279.